العادل، وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيتُ قائدَ الفيل وسائسَه بمكة أعميَيْن مُقعَدَيْن، يستطعمان الناس[١].

وقَصَّ الله قصة الفيل على رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ السورة، واتَّفق أهلُ السِّيَر على أن أوّلَ يوم من المُحرَّم عام الفيل كان يوم الجمعة، وأن أبرهة وصل إلى مكّة يومَ الأحد سابع عشر مُحرَّم، وفيه هَلَك.

فصل في قصة عبد الله بن الثامر

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عفان بن مُسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فمرض الساحر، فقال للملك: إني قد كَبِرت، وحضر أَجلي، فادفع إليَّ غلاماً أعلِّمُه السِّحْر، فدفع إليه غُلاماً، فكان يَختلفُ إليه، وكان في طريقه راهبٌ، فمرَّ به الغلامُ، فأعجبه كلامُه، فكان يُطيلُ القُعودَ عنده، فإذا أتى أهلَه ضربوه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الرّاهب، فقال: يا بني، إذا استبطأَك الساحر فقل: حَبَسني أهلي، وإذا استبطأك أهلُك، فقل: حبسني الساحر.

فمرَّ ذات يوم بدابّةٍ قد حبسَت الناس، وكانت فظيعةً، فقال: اليوم أعلمُ أمرَ الراهب والساحر، الرّاهبُ أفضل أم السَّاحر؟ فأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحرِ، فاقتل هذه الدابة، فرماها، فقتلها، ومضى الناسُ، وأخبر بذلك الراهب، فقال له: يا بنيَّ، إنك ستُبتلى، فإن ابتُليت فاصبر، وفي روايةٍ: يا بني، أنت اليوم أفضلُ منّي، وقد بلغ من أمرك ما أرى، فإنك ستُبتلى، فإن ابتُليتَ، فلا تدلَّ عليّ.

وكان الغُلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويُداوي الناس، فبينا هو على ذلك إذ عَمِي جليسُ الملك، فأتاه بمالٍ عظيم، وقال: اشفني، ولك هذا، ولك ما هاهنا، فقال: إني لا أشفي أحداً، ولكنّ الله هو الشافي، فإن آمنت به دعوتُه فشفاك، فآمن بالله، فدعا له الله فشفاه.

---

(١) السيرة ١/ ٥٧.

فجلس إلى الملك فقال: يا فلان، مَن شفاك؟ فقال: ربي. قال: أَولَك ربٌّ غيري؟ قال: نعم، ربي وربُّك الله. فأخذه فلم يزل يُعذّبه حتى دلّ على الغلام، فجيء به، فقال له الملك: قد بلغ من سِحرك أنّك تُبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أَشفي أحداً، إنما الله سبحانه الشافي، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء به، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضعه على مفرقه، فشقّه نصفين، ثم جيء بجليس الملك، ففُعل به كذلك.

ثم جيء بالغلام، فقال له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه وقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فإذا بلغتم ذُروتَه، فإنْ رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به إلى الجبل، فقال: اللهم اكْفِنيهم، بما شئت، فرَجفَ بهم الجبل، فسقطوا، وجاء الغلام يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفرٍ آخر وقال: اذهبوا به في قُرقُور ـ أي: سفينة ـ وتوسّطوا به البحر، فإنْ رجع عن دينه، وإلا فاقذفوا به في البحر، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينةُ فغرقوا، وجاء يمشي، فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال الغلام للملك: إنك لستَ قاتلي حتى تفعل ما آمُرك، قال: وما هو؟ قال: تَجمعُ الناس في صعيدٍ واحد، وتَصلِبُني على جذعٍ، ثم تأخذ سهماً من كنانتي، وتضعه في كبد القوس، ثم قل بسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمِ به، فإنك إذا فعلتَ ذلك قتلتَني، فجمع الناس في صَعيدٍ واحد، وصلبه على جِذْع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، وقال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السَّهمُ في صُدْغه، فوضع يده على صُدْغه ومات، فقال الناس: آمنّا بربِّ الغلام، فأُتي الملك، وقيل له: أرأيْتَ ما كنتَ تَحذر، قد والله نزل بك حَذَرُك، قد آمن النّاس، فأمر بالأخاديد فخُدَّت بأفواه السِّكَك، وأَضرم فيها النيران، وقال: مَن رجع عن دينه، وإلا اقذفوه في النار وأَقْحموه، ففعلوا، وجاءت امرأةٌ ومعها صبيّ لها، فقيل: ارجعي عن دينك، فتقاعست أن تقع فيها، أي: توقَّفتْ، فتكلَّم ابنُها وقال: يا أمَّاه اصبري، فإنك على الحق». انفرد بإخراجه مسلم[1].

(١) مسند أحمد (٢٣٩٣١)، وصحيح مسلم (٣٠٠٥).

وقال الضحاك: تكلَّم في المَهْد ستة: شاهدُ يوسف، وابنُ ماشطة فرعون، وعيسى، ويحيى عليهما السلام، وصاحبُ جُرَيج، وصاحبُ الأُخدود.

وقد اختلف العلماء فيمَنْ نزل قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾[البروج: ٤]، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعامة المفسرين: نزلت في عبد الله بن الثامر وأصحابه، وقال ابن عباس: كان عبد الله بن الثامر في زمان ذي نواس، وعبد الله يومئذ بنجران، فسار إليه، فخدَّ له ولأصحابه الأخاديد قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة.

وقيل: إن بعض الملوك سكر، فوقع على أخته، فلما صحا قال له الناس: ما صنعتَ؟ فندم، فقالت له أخته: ادْعُ الناس إلى إباحة مثل هذا، فدعاهم، فأبَوا، فقالت: خُدَّ لهم الأخاديد، ثم اقذِفْهم في النار، ففعل، فمَن وافقه تركه، ومن خالفه ألقاه في النار[1].

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٧٠ ـ ٢٧٦.